

مصادر الحضارة الإسلامية

القرآن الكريم: هو الكتاب السماوي المنزل على خاتم الأنبياء والذي عليه مدار حياة المسلمين إذ تضمّن مبادئهم وقوانينهم وضبط سلوكهم فشيّدوا حضارتهم في إطاره ووجد المسلمون فيه ما يحتاجونه لتنظيم دولتهم وتسيير مجتمعاتهم.

فالقرآن يرسم للإنسان طريق حياته ويكرمه على سائر الخلق فهو مستخلف في الأرض لعمارته وفي الأموال لنمائها وهو أمين على الدين يهتدي به عملا ويدعو غيره إليه قولاً واقتداءً، وبعد اكتمال الدين والتحاق النبي بالرفيق الأعلى واصل صحابته وتابعوهم تطبيق مبادئ القرآن في جزيرة العرب وخارجها لإثبات صلاحية هذا الدين لكل زمان ومكان، ولهذا تميزت الحضارة الإسلامية بأنها ظلت قروناً طويلاً تستقي من هذا المعين الذي لا ينضب ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تجدد به طاقتها وتستوحي منه كافة إبداعاتها .

السنة النبوية: لقد علّم النبي صلى الله عليه وسلم صحابته تعاليم الإسلام فكانت تفاصيل أقواله وأحواله محطّ أنظارهم وبؤرة اهتمامهم كيف لا؟ وهو المعصوم عن الخطأ أصلاً و بالتالي فهو مثل كلام الله مصدر من مصادر الحقيقة المطلقة (و ما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى) بل إن القرآن قد نص على ضرورة إتباعه (و ما أتاكم الرسول فخذوه و ما نهاكم عنه فانتهوا) ومن ثمّ حرص الصحابة على تذاكره فيما بينهم و التذكير به بل إن بعضهم قام بتدوين الحديث النبوي دوماً تأليف حتى نهاية القرن الهجري الأول ليتنافس التابعون و أتباعهم من أئمة المسلمين في تأليف كتب الحديث و جمعها من مظانها و غربلتها بمقاييس عامية دقيقة حتى يسير كل مسلم في خطى حياته على هدي نبوي ثابت وواضح و كذلك كانت حضارة المسلمين.

هذا و لم ير المسلمون بأساً في الأخذ بمن أسلم من غير العرب و حتى عمن لم يسلم من الذين تعايشوا مع أهل الإسلام، و أنتجوا معاً تلك الحضارة التي تسمى (الإسلامية) كيف لا و لا نبينهم كان يجب موافقة أهل الكتاب فيما ليس فيه وحي من الله بل إن الله أمرهم بمجادلتهم بأحسن الطرق (و لا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن) فاقتبس المسلمون من غيرهم في مجالات واسعة و نافعة بل إنهم أعطوا الفرصة لغير المسلمين لكي يسهموا معهم في بناء هذه الحضارة فنجدهم جنباً إلى جنب في الطب و الترجمة بل حظي غير المسلمين بالمكانة الرفيعة لدى الدول الإسلامية المتعاقبة و إذا كانت الحضارة الإسلامية تتفق مع غيرها من الحضارات في كثير من المصادر فإنها مع ذلك تتميز بأصالتها في مصدرها الخاصين بها و الرئيسيين وهما القرآن و السنة.

المصادر المكتوبة :

هي ما أنتجته حضارة المسلمين من مؤلفات الكتاب الأقدمين و مخطوطات ووثائق رسمية في الأرشيفات و كذا الرسائل و الاتفاقيات و حتى أوراق البردي التي تكتشف من حين لآخر ... و كلها تُعدّ أصولاً لدراسة النظم المختلفة لهذه الحضارة، ولكن بفضل معرض للتلف أو أتلف فعلا عبر تقلبات التاريخ عن قصد أو غير قصد فالبرديات المصرية التي ترجع للقرون الهجرية الأولى تأكلت بالإهمال أو الحروق، و أهتمّ المستشرقون بما تبقى منها فوجدوا فيما معلومات دقيقة عن حياة المجتمع لا نكاد نجدها في الكتب المعادة... أما التأليف فقد تصاعدت وتيرته مع منتصف القرن الثاني، و كتب المسلمون و أبدعوا في مختلف المجالات بدءاً بالدين و اللغة و وصولاً إلى علوم الكيمياء و الطب، و قد حرص كثير من المؤلفين أن يكونوا موسوعيين بينما ركز آخرون في تخصصات دقيقة و انتجوا فيها نتائج باهرة، و يكفي أن نعرف أن أسس النهضة الأوروبية تقوم على أفكار المسلمين و ملاحظاتهم و تجاربهم في الكيمياء و الصيدلة و المعادن و النبات و البيطرة و الفلاحة و الملاحة، و ما تركه ابن سينا و ابن رشد و ابن الهيثم و ابن النفيس و الخوارزمي و ابن خلدون... كاف لإثبات ذلك، أما في مجالات التباري في فنون الشعر و التباهي في أنواع الخط العربي فهي لا تعد و لا تحصى من إبداعات تخص هذه الحضارة بالذات.

المصادر الأثرية:

و هي كل ما تركه المسلمون من آثار غير مكتوبة كالمدن و المساجد و القلاع و العملات و الطراز و صناعة الأسلحة و غيرها مما يساعد على دراسة حضارتهم التي لا تزال آثارها شامخة تدل عليها من الهند إلى الأندلس مروراً بالشرق و المغرب و ما في المتاحف العالمية من آثار أخرى تدل على زخم الحياة الإسلامية في العصور الوسطى.

فالمساجد هي المحاور التي تأسست حولها بعض المدن كفسطاط مصر و بسبب المساجد تحولت بعض المدن القديمة إلى رموز إسلامية كدمشق بعد فتحها وكل مدائن العالم الإسلامي القديم تعيننا آثارها على فهم حضارتها كالأسوار و المكتبات و الأسواق و الحمامات و الفنادق و البيمارستانات (أي المستشفيات) و الحدائق ... أما العملات (المسكوكات النقدية) فإنها تعكس المستوى الاقتصادي للدولة و المعيشي للمجتمع و ما ينقش فيها يتضمن ألقاب حكام تلك العصور و تلك الأقاليم و ربما مذهبهم الدينية و قد تصحح بما بعض المعلومات و تؤكد بعضها الآخر و تصل بعض العملات إلى مناطق بعيدة، و كذلك الأمر بالنسبة للطراز (و هي الكسوة السلطانية) و الأعلام (و هي الرايات الحربية) و ما يكتب فيها...

مدخل للحضارة الإسلامية

مكونات المجتمع الإسلامي:

لقد اصطبت المجتمعات المنظرية تحت لواء الإسلام بصبغة هذا الدين الذي نظم علاقات الفرد بربه و بنفسه و بالعلاقات الأسرية و علاقات المجتمعات مع بعضها و كانت الصحيفة النبوية تصرح بتنظيم أطراف المجتمع و أطراف الدولة الوليدة و أعلن رسميا عن حرية العقيدة و نبج النبي و صحابته فعليا في ترويض العصبية و تذويب الفوارق الاجتماعية إلى أكبر قدر ممكن في ذلك الوقت، و لكن تضخم المجتمعات المسلمة بعد ذلك أفسح المجال لعودة تلك المظاهر بطرق مختلفة و بنسب متفاوتة بحسب نجاح أو تراجع آلية الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر التي غرسها القرآن مع الإيمان في نفوس إتباعه إذ قال لهم: " كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف و تنهون عن المنكر و تؤمنون بالله "

ورغم تعقيدات مكونات المجتمع في الحضارة الإسلامية إلا أن الدراسات الاجتماعية الحديثة تناولتها بتصنيفات وهي (ثلاثة تركيب عرقي و طوائف دينية و فوارق طبيعية).

أولا: التركيب العرقي (الأجناس) : لما أصبحت الخلافة ملكا راحت تعتمد بشكل صارخ على العرب مراعاة لكون النبي و صحابته عربا و القرآن باللسان العربي و مع أن التعاليم تعاكس هذا التوجه (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) (لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى) و قد أساء العرب إلى أنفسهم بإحياء العصبية لأنهم إنقسموا بين ذمينة و قيسية فهذا معاوية يتزوج من يمانية (كلب) و يقرهم فتضطرب الأمور بعده و يحاول عبد الملك إقامة توازن بين العصبيات بينما حاول ابن أخيه عمر بن عبد العزيز الإصلاح الشامل لكن أبناء عبد الملك قبل الإصلاح و بعده واصلوا لعبة التوازنات القبلية التي فشل الأحفاد في إتقانها فأنهارت الأسرة الأموية لتحل محل الأسرة العباسية التي جندت غير العرب من المسلمين الموالي بقيادة أحدهم و هو أبو مسلم الخراساني و كانت سياسة الأمويين قد غذت أحقادهم عليها فبعض الولاة و الخلفاء أبقوا على الجزية و تلاعبوا في العطاءات إنقاصا و حرمانا و لهذا كان الموالي سريعي الاستجابة في ثورة المختار و ابن الأشعث و الخوارج ... و بعد إحلال البيت، العبادي محل البيت الأموي على رأس الخلافة ظن الموالي الفرس أن هذا الأمر انتصار لهم على العرب و لكن الواقع قد أثبت أن العباسيين قد رفضوا بناء دولتهم على أنقاض العرب فأبقوا على امتيازاتهم فكان العرب نصف الجيش و كان منهم أكثر القادة، بينما لم يسمحوا للفرس إلا بمزاحمتهم على بعض المناصب العليا و إن قد ترك الفرس بصماتهم في المجتمع (القصور و بعض المظاهر الساسانية) إذ أصبحت العاصمة قريية منهم (بغداد) و أصبح المسلمون يشاركون في أعياد النوروز و المهرجان و مجالس الترف و ألوان الأطعمة و الملابس ذات الصبغة الإيرانية ... ومع كل هذه التأثيرات إلا أن تحفظ الخلفاء منهم كان يظهر في كل مرة (ثم قتل أبي مسلم مع نكبة البراءة مكة) و حاول الفضل بن سهل بعد تشجيعه للمأمون

ضد الأمين أنه يبدو كوزير فارسي لكن مقتله أنهى هذه المحاولة فلما خلف المعتصم أخاه المأمون لم يشأ الانخراط في لعبة التوازن بين العرب و الفرس فاستكثر من العنصر التركي و كانت أمه جارية تركية و كانوا يتدفقون من وسط القارة الآسيوية إلى العراق فجلب منهم سبعين ألف مملوك و بالغ في إلباسهم الديباج، و لما رأى كثرتهم بنى لهم مدينة سامراء شمال العاصمة بغداد حوالي 220هـ و أطلق المعتصم عطاءات العرب و أرزاقهم من ديوان الجند ثم تحكّم قادة الأتراك في خلفاء بني العباس بعد ذلك.

ثانيا: الطوائف الدينية:

أسفرت الفتوحات الكبرى في القرن الهجري الأول عن خضوع شعوب كثيرة لحكم الإسلام وقد خيرت بين اعتناقه أو دفع الجزية فتصاعدت و تيرة الدخول في الإسلام ليكون المسلمون أغلبية سكانية في هذه الدولة المترامية الأطراف، و لكن الذي يمثل تكوين الدين الجديد وفهمه ارتبط منذ العصر الراشدي بالتنافس على حكم المسلمين فبدأت تنسج خيوط المذاهب العقائدية الكبرى مع أحداث القرن الأول هجري بدءًا بأهل السنة و الشيعة و انتهاءً بالقدرية مرورًا بالخوارج و لكن الفرقتين الأكبر هما السنة ثم الشيعة ... فأهل السنة هم أغلب المسلمين وأما الشيعة فمبدأ أمرهم هو العاطفة المشايعة و المناصرة لحق الإمام علي و سائر البيت النبوي في السلطة بصفة خاصة و في تمثيل الدين بصفة عامة استنادا إلى بعض الأحاديث كغدير خم (من كنت مولاه فعلي مولاه) وزادت أحداث العصر الأموي من تفاقم هذه العاطفة نحو الغلو و تقديس نظرية الإمامة فلما جاء العباسيون بفكرة الثار لأهل البيت و حقهم الإلهي وهم من أهل البيت راح هذا الفرع يتوجس خيفة من منافسة الفرع العلوي فكثرت الغلاة في أشياع الفرع الحسيني دون أشياع الفرع الحسيني و تنافست السلطات القائمة في إظهار التبجيل و الإكرام لكل من ينتمي لهذه الدوحة الشريفة ممن التزموا عدم الخروج عليها فأطلقوا عليهم أ

اسم الأشراف بل أصبحوا يمثلون طبقة في المجتمعات لهم ملابسهم و أعطياتهم و لهم نقيبهم (أي ممثلهم لدى السلطة) و في القرن الرابع الهجري ازداد تنافس السلطات على إكرام (الأشراف) بصعود نجم الدولة الفاطمية شمال إفريقيا و مصر و الشام ... وهو القرن الذي ترسخت فيه أعياد كل فرقة إمعانا في تحدي الفرقة المضادة (عاشوراء على سبيل المثال).